شعرية الصبا

في قصيدة: " من وحي الصبا" لمحمد خليل عبو

بقلم
أ/ عادل محلو
أستاذ مساعد بمعهد الآداب واللغات
المركز الجامعي بالوادي

الملخص

يتناول هذا المقال العلاقة بين شكل النص ومضمونه في قصيدة " من وحي الصبا " لمحمد خليل عبو من خلال ربط تفاوت حجم الفضاء النصي بين مقاطع القصيدة المختلفة، وتقنية كتابة الاستهلال والاهتمام بالتفاصيل، إلى جانب الإيقاع من خلال تنوع الروي، ربط كل هذه المظاهر الشكلية للنص بمضمونه كمؤشر على نجاحه شعريا وجماليا.

Resumé:

Cet article traite la relation entre la forme et le contenu du texte dans le poème « min wahyi as_Sibaa » de Med khalil Abbou par la combinaison de l'espace du texte dans ces déférentes parties, et la technique de l'écriture du début du poème , et l'intérêt des détails, et aussi le rythme du divers rimes ; la combinaison de toutes ces figures de la forme du texte à son contenu comme un index de sa réussite poétique et esthétique.

المقدمة:

إننا ـ دوما ـ نطارد طفولتنا محاولين استعادتها بكل أبعادها، فحتى أولئك الذين يبدون لنا وقورين ذوي هيبة وجلال من الناس لهم لحظاتهم التي

يسقطون فيها هذا القناع عائدين إلى مرافئ الطفولة؛ حيث العالم ملك اليد وطوع الأمر...المسافات غير المسافات...الأشياء غير الأشياء، وتوحّد عميق مع الطبيعة والناس.

يبدو لي أن أهلنا بالشام قد برعوا في ذلك أيما براعة؛ ففي أشعارهم دعوة مفتوحة لحضور مراسيم الطفولة، وكفى شاهدا على ذلك أن أبرز شاعر كتب للأطفال هو ابن تلك البيئة: سليمان العيسى. كما أن في أغانيهم ـ وفيروز خصوصا ـ انغماس لا نهائي في لحظات الطفولة والبراءة. وفي ذات الوقت يبدو لي أننا نحن الجزائريين لا نمارس مثل هذه الكتابة أو الغناء إلا نادرا، بينما نحن أحوج من في هذا الكون إلى الانفتاح مجددا على عالم الطفولة.

من بين هذا النتاج الجزائري النادر في استعادة الطفولة أدبيا نجد قصيدة الشاعر: محمد خليل عبّو التي عنوانها : من وحي الصبا. وأحاول هنا أن تناولها بالنقد مبينا ملامح تشاكل جوانبها الشكلية مع ما فيها من موضوع يدور حول الشوق الجارف إلى تكرار تجربة الطفولة، وبقدر توفر هذا التشاكل بين الشكل والمضمون يتوفر للنص شعرية ترفعه إلى مصاف الجودة وتقصي عنه الرداءة التي تأتي جماليته وأدبيته ؛ لأن الجمال ـ كما يقول كروتشيه ـ يقدم وحدة والقبح يقدم متعددا [1].

نص القصيدة:

أشتاق لأن أقرأ...قَ...رَ...أَ
قَرَأَ
أشتاق لأن أكتب...كتب
ولأنْ أمشي في الأرض كما الجبّارْ
مزهوا بالنفس وبالمحفظة السوداء
ألوي للدارْ
أشتاق لأن ألعب شرطيا
أو لصّا...أو بيّاع خُضارٍ...أو نجارْ

أشتاق لأن ألعب رب البيتْ
مع إحدى الرباتْ
نصنع أطفالا من وهم... أو دمياتْ
أو نتبنى ـ زورا ـ أبناء الجيرانْ
ولأن أخرج للكتّاب صباحا، ومساءً
بيدي لوح القرآنْ
أهزأ بالبعد،وبالطقس البارد والأمطارْ
ولأن أمرح في الحقل طروبا
اصطاد فراشا...
أو أقطف أزهارْ
أو ألعب مع لبنى أو ليلى لعب عروس وعريسٍ
...أو أتسلق أشجارْ
أشتاق لأن أبني فخّا للأطيارْ
أو أصنع سيفا من قصبٍ
أو رمحاً
أو قوس محاربْ
وتمثّل لبنى أو ليلى عبلةْ...
وأمثّل عنترْ
أجري...أصرخُ...وأنادي شيبوباً
وأهدّدُ زيدا أو عمرا...وأضاربْ
أشتاق لأن تضربني أمي أو أسقط من فوق جدار منهارِ...
كي أبكي...
ولأن أقذف بالأحجارِ
قطعان الغنم المرصوفة والأبقارِ
كي يجري الرعيان ورائي

كي أجري...
***
أشتاق لأن تحضنني أمي
كي أرجع طفلا يلعب بالطين ويعجنهُ
كيْما يرمي الأترابْ
يبني أسوارا...أو دياراً
ويلطخ بالطين الأثوابْ
أشتاق لأن أرجع طفلا يشتاقْ
أن يصبح يوما رجلاً
مثل عليّ...أو عمر...أو كالمقدادْ
أو يصبح يوما قائدْ...
مثل صلاح أو خالدْ...
أو يصبح شاعرْ...
كالمتنبي...أو ثائرْ
كالمقراني...والشيخ الحدّادْ
***
أشتاق لأن أرجع طفلا كي أشتاقْ
أيام العمر الآتي...بل أشتاقْ
أن أرجع طفلاً...
كي أتعلم أن أشتاقْ.[2]

1- **شعرية الفضاء النصي:**

سيلحظ القارئ ـ دون شك ـ التفاوت الكبير بين مقاطع القصيدة الثلاثة طولا وقصرا ؛ حيث الأول أطولها فالثاني فالثالث، فهي تتقاسم فضاء النص بشكل غير متساوٍ.

وتظهر نسبة كل مقطع في النص كما يلي :

المقاطع	عدد الأسطر	النسبة من فضاء النص
الأول	37	% 68.52
الثاني	13	% 24.07
الثالث	04	% 07.41
المجموع	54	% 100

فالمقطع الأول يحتل أكثر من ضعف مساحة المقطعين الآخرين، وهي سيطرة مبررة شعريا ؛ إذ يحاول الشاعر من خلالها الإصرار على العيش في اللحظات المستعادة من الطفولة زمنا أطول حيث يتحدث هذا المقطع بشكل مفصّل عن مجموعة من الألعاب والمشاكسات التي يمارسها الصغار ببراءة متناهية. بينما نجد في المقطع الثاني بدء ملامح من المسؤولية الملقاة على الطفل حين يبدأ في التقاطع مع عالم الكبار عندما يحلم بأن يكون رجلا مثل علي كرم الله وجهه أو عمر رضي الله عنه أو شاعرا كالمتنبي أو وطنيا ثائرا كالمقراني والحداد رحمهما الله. فهنا بدأ ذلك الطفل الذي قابلنا في المقطع الأول يعيش لحظته الطفولية فقط وقد أخذ ينظر، بعض الشيء، بوعي إلى عالم الكبار، وشرع في ولوج عالمهم من باب العظماء والشرفاء؛ ولهذا احتل المقطع الثاني حيزا أقل من الأول فالشاعر إذن مصرّ ومحتاج إلى تلك الأيام التي عاش طفولته فيها لأجل الطفولة فقط.

ثم يجيء المقطع الثالث ليقابلنا الشاعر كما هو الآن ـ كبيرا ـ يشتاق إلى استعادة ذلك الصبا من جديد ؛ فهو في هذا المقطع خارج زمن اللعب والمشاكسات، إنه في عالم الهموم والمشاكل والمسؤوليات القاهرة التي يسلطها الواقع على الكبار، ولهذا أعطاه الشاعر حرزا ضئيلا جدا من فضاء النص: إنه يحاول الهرب منه لذلك حجّمه وقزّمه.

2ـ شعرية الاستهلال:

تنطلق القصيدة في سرد تفاصيل الطفولة المبتهجة بالشوق إلى تلك اللحظات التي يدخل فيها الطفل عالم التعبير باللغة قراءة وكتابة:

أشتاق لأن أقرأ...قَ...رَ...أَ
قَرَأَ
أشتاق لأن أكتب...كتب

إنه لمن المنطقي أن نتساءل : لماذا لم يستهل الشاعر نصّه بتصوير أول تقاطع للمولود مع الحياة من خلال النور الذي يغمر عينيه لأول مرة بعد عيشه في ظلمات ثلاث؟ أو: لماذا لم يستهله بلحظات اللعب والمشاكسات الطفولية؟

والجواب هو أن الفارق بين الإبداع وغيره هي قدرته على كسر التوقعات وانتهاك المألوف من التصورات. فالشاعر ليس مؤرخا ليربط قصيدته بالزمن الكرونولوجي ؛ إذ للشعر منطقه الخاص وزمنه المتميز،لكن الشرط الأساس هو أن يكون وراء كسر التوقعات وانتهاك ما هو مألوف هدف جوهري.

لقد تحقق ذلك في هذا الاستهلال البارع الذي صاغه الشاعر لقصيدته؛ فالانطلاق من القراءة والكتابة تصوير للحظة الولادة الحقيقية، لحظة امتلاكه اللغة حتى يعبر عن نفسه باستقلالية بعد أن كان أسير أمِّه.إنها لحظة الخروج من ظلمات الاتكاء على الآخر إلى نور الاعتماد على الذات؛ لأن « الطفل يولد مرتين: أولاهما ولادة عضوية (بيولوجية)، وثانيتهما ولادة ثقافية، حيث يتحول في الولادة الثانية إلى كائن ثقافي»[3].

كما يكشف هذا الاستهلال عن عمق أكثر حين ننظر إليه من وجهة نظر التناص ؛ فلقد بدأ الشاعر نصّه بالشوق إلى القراءة كما بدأ القرآن الكريم بكلمة: اقرأ في قوله تعالى :﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾[4]. فالقراءة هي مفتاح الخروج من الظلمات إلى النور؛ فالشاعر ـ إذن ـ يحفل بالجوهري أي ولادة الإنسان ذاتا مستقلة متكاملة لا ولادته كجسد متماهٍ مع أمه أو الأشياء المحيطة به. وهذا الاتجاه اتجاه طفولي مغرق في الإنسانية فأنت تصير إنسانا وتكتسب هويتك عندما تكتمل قدرتك على التعبير عن ذاتك باستقلالية، إنك أنت لا بلونك، لا بعرقك، ولا بدينك؛ بل أنت تعبير عن ذاتك. إنه انعكاس

آخر لفكر الطفولة في النص فالأطفال لا يميزون على هذه الأسس اللونية أو العرقية أو غيرها، بل يرون الناس سواسية كأسنان المشط لأنهم على الفطرة كما قال الرسول ﷺ.

3 – **شعرية التفاصيل**:

نجد في هذا النص اهتماما بالغا، بل احتفالا، بالتفاصيل أقتصر هنا على ذكر نموذجين فقط:

النموذج الأول:

يقول الشاعر:

أشتاق لأن أقرأ...قَ...رَ...أَ

قَرَأَ

أشتاق لأن أكتب...كتب.

الشاعر هنا لا يكتفي بإعلان شوقه إلى القراءة بل يعطينا تفصيلا جماليا وكأننا نستمع إلى طفل يخطو أولى خطواته في عالم اللغة الرحب الفسيح ساعيا إلى امتلاكها للتعبير عن ذاته وتحقيق استقلاله النفسي والمعرفي فيكتب: (قَ...رَ...أَ) مفككة مهجّاة بمسافات فاصلة بين حروفها بنقاط في تعبير بصري عن البعد الزمني الذي يصمته الطفل عندما يحاول التعرف على الحرف الثاني في الكلمة، وبعدها يقرؤها غير مفككة: (قرأ) وكأننا أمام هذا الطفل وقد نجح في قراء كلمة فجمّعها ونطقها نطقا سليما.

وهكذا يكتسب الطفل وسيلة القراءة التي تمكنه من دخول عالم الآخرين من خلال ما يكتبونه. ثم يعلن عن شوقه للكتابة التي تمثل طريق العودة مقارنة بالقراءة؛ فهي تمنحه قدرة التعبير عن ذاته وإدخال الآخرين إلى عالمه الخاص.

النموذج الثاني:

يقول محمد خليل عبّو:

ولأن أخرج للكتّاب صباحا، ومساءً

بيدي لوح القرآنْ

كان بوسعه أن يقول فقط: (ولأن أخرج للكتاب)، فنحن نعلم أن ذلك يكون غالبا صباحا ومساء، ونعلم أيضا أنه سيحمل لوح القرآن بيده. لكنه أبى ذلك وأعطانا هذه التفاصيل لا من باب الإعلام بما عاشه فالشعر ليس فيلما تسجيليا بسيطا يعكس صور الحياة بآلية مرآتية بسيطة؛ بل كان القصد هنا الاحتفاء بتلك التفاصيل الصغيرة كما يحتفي الأطفال بتفاصيل لا نهتم بها نحن الكبار.وإننا في أحيان كثيرة نصطدم بأن الأطفال يهتمون بدقائق لا نعيرها اهتماما ويرون الأشياء من منظور مختلف تماما ويجدون في التركيز عليها متعة ونشوة رائعة؛ إنهم ليسوا جشطالتيين مثل الكبار ولذلك قال الشاعر الكبير سليمان العيسى ـ وهو من هو في مجال أدب الأطفال ـ « الطفل رادار عجيب »[5]. وهكذا نحى الشاعر نحو الاهتمام بالتفاصيل الصغيرة والتركيز عليها خاصة خلال المقطع الأول ليتشاكل مع خصائص النظرة الطفولية للعالم والأشياء.

4 – **شعرية الروي**:

يمثل الروي روح القافية في القصيدة وجوهرها ولذلك كان ثعلب يسمي الروي قافية كما ظلت كثير من المجموعات والدواوين الشعرية ترتب على القوافي والمقصود هو الترتيب على حروف الروي[6]. لكن الأمر يتعدى الوظيفة الإيقاعية لأن وجود الصوت، أي صوت، في الشعر ليس اعتباطيا[7] ؛ فالروي في جانبه الصوتي يتشاكل مع دلالة النص ليقدم لنا جمالية شعرية تعدّ أساسا من أسس تقبّلنا للنص وإعجابنا به لأن « الشعر ليس مختلفا عن باقي الفنون، كما يطيب لنقاد الموسيقى والرسم أن يشيروا غالبا، فالمضمون فيها جميعا أمر لا ينفصل بتاتا عن الشكل »[8].

في هذه القصيدة وظف الشاعر عددا من الأصوات رويا وهي:

- الراء: ساكنا ومكسورا.
- الباء: ساكنا.
- الدال: ساكنا.

- القاف: ساكنا.

وأول ما نلاحظه أن الأصوات الثلاثة الأخيرة من أصوات القلقلة في اللغة العربية[9]، بينما الراء ليس صوت قلقلة وفي هذا ما يوحي بالتركيز على صفة التكرار التي تميز الراء[10] خلال المقطع الأول من القصيدة ؛ لأنه يحاول استعادة تلك اللحظات الطفولية التي انفلتت من بين يديه.ثم تجيء أصوات القلقة في نهاية المقطع الأول وخلال المقطعين الثاني والثالث لتضفي على هذه المحاولة نوعا من الاضطراب والشك حتى تصل قمتها مع المقطع الأخير باستعمال صوت القاف رويا أوحدا به، وهو الصوت الذي ارتبط في العربية بدلالة الانقطاع[11] ليثبِت النتيجة التي يصل إليها النص وهي استحالة العودة إلى زمن الصبا؛ حيث يعترف الشاعر بأنه يريد العودة ولو ليتعلم كيف يشتاق لا ليكرر تلك المرحلة بأكملها :

أشتاق لأن أرجع طفلا كي أشتاقْ
أيام العمر الآتي...بل أشتاقْ
أن أرجع طفلاً...
كي أتعلم أن أشتاقْ.

وإذا كان الشاعر قد استخدم الراء المتسمة بالتكرار في بداية القصيدة وخلص إلى القاف المقلقل المضطرب الدال على الانقطاع في آخرها فإنه كان في وسطها قد استغل صوتي الباء والدال للتعبير عن ملامح الفتوة واليفاع، وهما الأنسب لما يميزهما من انفجارية في النطق واندفاع سريع للهواء[12] كاندفاع الأطفال اليافعين في ألعابهم ومغامراتهم فلا يحدّهم إلا التعب والإجهاد ولولا ذلك لظلوا لاهين إلى أن ينتهي الزمن!

وقد كان توزيع الروي متشاكلا مع توزيع الفضاء النصي حيث كان للراء حضور مكثف لأنه يسيطر في المقطع الأول الذي يشغل حيزا أكبر من ضعف مساحة المقطعين الآخرين لأن المقطع الأول يكاد يحمل وحده

مقولة النص التي تتمحور حول استعادة لحظات الصبا مما يدفع بالنص نحو تكامل يعطي بناءه تماسكا فنيا يرفعه إلى درجة من الجودة تجعل رصيد تقبله والإعجاب به أوفر.

إن هذا النص يتكئ على بنية شكلية توحي بالصبا والإصرار عليه من خلال الاستهلال المميز وتوزيع الفضاء، والاهتمام بالتفاصيل، واستغلال الخصائص الصوتية للروي بما يخدم الفكرة التي تمثّل نواة مضمونه، وأحسب أن هذا التشاكل قد منح النص طاقة جمالية تندفع كلما قرأناه لتلامس إحساسنا الشعري وتداعب ذكريات خصبة مكتنزة في كل زوايا الروح منذ أيام الصبا الأولى.

ـ الهوامش:

1 – انظر : فلسفة الجمال، د. أميرة حلمي مطر،دار الثقافة، القاهرة، ص:183.

2 – نص القصيدة مخطوط بحوزة كاتب المقال.

3 – ثقافة الأطفال، هادي نعمان الهيتي، مطابع الرسالة، الكويت، سلسلة عالم المعرفة ع123، ص :103.

4 – العلق، الآية: 1.

5 – الطفل في الأدب العربي، محمد العروسي المطوي، مجلة الثقافة، الجزائر، س5 ع 27، 1975، ص :97.

6 – انظر: موسيقى الشعر العربي، شكري محمد عياد، طبعة أصدقاء الكتاب، 1998، ص :91.

7– انظر: تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، د.محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 1992،ص:60.

8 – النظريات الجمالية عند:كانط– هيغل– شوبنهاور، إ. نوكس، تر: محمد شفيق شيا، منشورات بحسون الثقافية، بيروت، ط1، 1985، ص:168.

9 – مبادئ اللسانيات، د.أحمد محمد قدور، دار الفكر، دمشق، ط 2، 1992، ص :87.

10 – انظر: المقتضب، المبرِّد، تحـ: محمد عبد الخالق عضيمة، دار النهضة، مصر، جـ1، ص:196.

11 – انظر: الخصائص، ابن جني، تحـ:محمد علي النجار، المكتبة العلمية، جـ2، ص : 158. و: الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية، جرجي زيدان، دار الحداثة، بيروت، ط1، 1987، ص : 108.

12 – انظر: علم الأصوات اللغوية، د. مهدي مناف الموسوي، منشورات جامعة السابع من أبريل، ليبيا، ط1، 1993، ص :58،50.